من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
الدكتور محمد أحمد خلف الله

- ١ -

حدث محمد بن الحارث بن بسخنر قال :

كانت لي نوبة في خدمة الواثق في كل جمعة ، اذا حضرت وكنت الى الدار ، فان نشط الى الشرب أقمت عنده ، وان لم ينشط انصرفت .

وكان رسمنا ألا يحضر أحد منا الا في نوبته ، فاني لفي منزلي في غير يوم نوبتي اذا رسل الخليفة قد هجموا علي وقالوا لي :

احضر .

فقلت : لخير ؟

قالوا : خير .

فقلت : ان هذا يوم لم يحضرني فيه امير المؤمنين قط ، ولعلكم غلطتم .

فقالوا : الله المستعان ، لاتطل وبادر ، فقد أمرنا ألا ندعك تستقر على الأرض .

فداخلني فزع شديد ، وخفت أن يكون سماع قد سعى بي ، أو بلية قد حدثت في رأي الخليفة علي ، فتقدمت بما أردت وركبت حتى وافيت الدار ، فدهمت لأدخل على رسمي من حيث كنت أدخل ، فمنعت ، وأخذ بيدي الخدم فادخلوني وعدلوا بي الى ممرات لا أعرفها ، فزاد ذلك في جزعي وغمي . ثم لم يزل الخدم يسلمونني من خدم الى خدم حتى أفضيت الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان بالرقي المنسوج بالذهب ، ثم أفضيت الى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، واذا الواثق في صدره على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه قريبة جاريته ، عليها مثل ثيابه وفي حجرها عود . فلما رآني قال :

جودت ـ أسرعت ـ والله يا محمد البينا .

فقبلت الأرض ثم قلت :

يا امير المؤمنين خيرا .

قال : خيرا ، اما ترانا ، طلبت والله ثائرا يؤسسنا فلم أر أحق بذلك منك ، فبحياتي بادر فكل شيئا وبادر اليها .

فقلت : قد والله ياسيدى أكلت وشربت ايضا .

قال : فاجلس .

فجلست .

وقال : هاتو لمحمد رطلا فى قدح ، فاحضرت ذلك ، واندفعت فريده تغنى :

أهابك اجلالا وما بك قدرة
على ولكن ملء عيني حبيبها
وما هجرتك النفس انك عندها
قليل ولكن كل شيء نصيبها

فحانت والله بالسحر ، وجعل الواثق يحادثها ، وفى خلال ذلك تغنى الصوت بعد الصوت ، وأغنى أنا فى خلال غنائها ، فمر لنا أحسن ما مر لأحد ، فأنا لكذلك اذ رفع رجله فضرب بها صدر فريده ضربة تدحرجت منها من اعلى السرير الى الأرض ، وتفتت عودها ، ومرت تعدو وتصيح ، وبقيت انا كالمنزوع الروح ، ولم أشك فى أن عينه وقعت على وقد نظرت اليها ونظرت الى .

أطرق ساعة الى الأرض متعجبا واطرقت اتوقع ضرب العنق ، فانى لكذلك اذ قال لى :

يا محمد .

فوثبت .

فقال : ويحك أرأيت أغرب مما نهيا عليها ؟

فقلت : يا سيدى ، الساعة والله تخرج روحي ، فعلى من اصابها بالعين لعنة الله ، فما كان السبب ؟ الدب ؟

قال : لا والله ، ولكن فكرت أن جعفرا يعقد هذا المعقد ويقعد معها كما هى قاعدة معى ، فلم أطق الصبر وحامرنى ما أخرجنى الى ما رأيت .

فسرى عنى وقلت :

بل يفعل الله جعفرا ، وبحياة أمير المؤمنين أبدا ، وضربت الأرض وقلت :

يا سيدى الله الله ، ارحمها ، ومر بردها .

فقال لبعض الخدم الوقوف : من يجيء بها ؟

فلم يكن بأسرع من أن خرجت وفى يدها عودها وعليها غير الثياب التى كانت

عليها ... فلما رأته جدتها وعاينها ... تبكي وهي تبكي ... وانكبت أنا على البكاء

فقالت ... ما دهاك يا مولاي وياسيدي ؟ وبأي شيء استوجبت هذا ؟

فأعاد عليها ما قاله لي وهو يبكي وهي تبكي .

فقالت ... سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا صرت عندي الساعة وارحتني من الفكر في هذا ، وأرحت قلبك من الهم بي ، وجعلت تبكي وتبكي ، ثم مسحنا أعيننا ورجعت الى مكانها .

وأومأ الى خدم وقوف بشيء لا أعرفه ، فمضوا وأحضروا أكياسا فيها عين وورق ، وررما فيها ثياب كثيرة ، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقدا ما رأيت قط مثل جوهر كان فيه ، فالبسها اياه ، وأحضرت بدره فيها عشرة آلاف درهم فجعلت بين يدي وخمسة تحوت فيها ثياب ، وعدنا الى أمرنا والى أحسن مما كنا ، فلم نزل كذلك الى الليل ، ثم تفرقنا .

وضرب الدهر ضربه وتقلد المتوكل ، فوالله اني لفي منزلي بعد يوم توفي ، اذ هجم علي رسل الخليفة ، فما أمهلوني حتى ركبت وضربت الى الدار ، فادخلت والله الحجرة بعينها ، واذا المتوكل في الموضع الذي كان فيه الواثق على السرير بعينه والى جانبه فريدة ، فلما رآني قال

ويحك ؟ أما ترى ما انا فيه من هذه ؟ أنا منذ غدوة أطالبها بأن تغنيني فأبى ذلك .

فقلت لها ... يا سبحان الله ، أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ؟ بحياته غني ؟

فعرفت والله ثم اندفعت تغني ...

فلا تبعدن فكل فتى سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي

ثم ضربت بالعود الأرض ، ثم رمت بنفسها عن السرير ومرت تعدو وهي تصيح واسيداه ...

فقال لي ... ويحك ؟ ما هذا ؟

فقلت ... لا أدري والله يا سيدي .

فقال ... فما ترى ؟

فقلت ... أرى أن أنصرف أنا وتحضر هذه ومعها غيرها ، فان الأمر يؤول الى ما تريده أمير المؤمنين .

قال ... فانصرف في حفظ الله ؟

فانصرفت ولم أدر ما كانت القصة .

حدث ابو سفيان بن حرب قال :

كنا قوما تجارا ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا . فلما كانت الهدنة ـ هدنة الحديبية ـ بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت في نفر من قريش الى الشام ، وكان وجه متجرنا منه غزة . فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس ، فأخرجهم وانتزع منهم صليبه الأعظم وكانوا قد استلبوه اياه . فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم ، وكانت حمص منزله ، خرج منها يمشي على قدميه شكرا لله حتى رد عليه مارد ليصل في بيت المقدس ، ويبسط له البساط ، ويلقى عليها الرياحين .

فلما انتهى الى ايلياء فقضى فيها صلاته وكان معه بطارقته وأشراف الروم ، أصبح ذات غدوة مهموما يقلب طرفه في السماء .

فقال له بطارقته ، والله لكأنك أصبحت الغداة مهموما .

فقال ، أجل ، رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر .

فقالوا ، أيها الملك ، ما نعلم أمة تختتن الا اليهود ، وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك من يهود واسترح من هذا الهم .

فوالله انهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه اذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده ـ وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم ـ فقال ،

أيها الملك ، ان هذا رجل من العرب من أهل البادية والابل يحدث عن أمر حدث فاسأله .

فلما انتهى به رسوله صاحب بصرى الى هرقل ، قال هرقل لمن جاء به ،

سله عن هذا الحديث الذي كان ببلده ، فسأله ، فقال ،

خرج فينا رجل يزعم أنه نبي ، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة ، وتركتهم على ذلك .

فلما أخبره الخبر قال ، جردوه فاذا هو مختون ، فقال ،

هذا والله النبي الذي رأيت لا ما تقولون ، أعطوه ثيابه وبطلق .

ثم دعا صاحب شرطته فقال له

اقلب الشام ظهرا لبطن حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل .

قال ابو سفيان ، فانا لنمرة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال ،

أنتم قوم من الحجاز ؟

قلنا : نعم .

قال : انطلقوا الى الملك .

فانطلقوا بنا . فلما انتهينا اليه قال

أنتم من رهط هذا الرجل الذي يالحجاز ؟

قلنا : نعم .

قال : فايكم أمس به رحما .

قال : قلت أنا . قال أبو سفيان : وايم الله ما رأيت رجلا ارى انه انكر من ذلك الأعلف — يعني هرقل —

ثم قال : ادنه . فاقعدني بين يديه واقعد أصحابي خلفي . وقال :

اني سائلة ، فان كذب فردوا عليه .

قال أبو سفيان : فوالله لقد علمت ان لو كذبت ما ردوا علي ، ولكني كنت امرأ سيدا أتبرم من الكذب ، وعرفت أن أيسر ما في ذلك ان انا كذبته أن يحفظوه علي ثم يحدثوا به عني ، فلم أكذبه .

قال : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي .

قال أبو سفيان : فجعلت أرعد له شأنه وأصغر له أموره ، وأقول له

أيها الملك ، ما يهمك من شأنه ؟ ان أمره دون ما يلتمك ، فجعل لا يلتفت الى ذلك مني .

ثم قال : اسكتني فيما أسألك عنه من شأنه .

قال أبو سفيان : قلت سل عما بدا لك .

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : محض ، هو اوسطنا نسبا .

قال : أخبرني هل كان أحد في أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به ؟

قال أبو سفيان : قلت لا .

قال : هل كان له فيكم ملك فسلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟

قال أبو سفيان : قلت لا .

قال : أخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟

قال أبو سفيان : قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأحساب من الأشراف فلم يتبعه منهم أحد .

قال : فأخبرني عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟

قال أبو سفيان : قلت : قلما يتبعه أحد فيفارقه .

قال : فاخبرني كيف الحرب بينكم وبينه

قال ابو سفيان : قلت : سجال يدال علينا ويدال عليه

قال : فاخبرني هل يغدر ؟

فلم أجد شيئا أغمز فيه غيرها ، فقلت : لا ، ونحن منه في مدة ولا ندري ما هو عادره

قال ابو سفيان : فوالله ما التفت اليها مني ، ثم كر على الحديث فقال

سألتك عن نسبه فيكم ، فزعمت انه محض من اوسطكم نسبا ، فكذلك تأخذ الله النبي لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا ، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له ملك فيكم فتتهموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه ، فزعمت أن لا ، وسألتك عن اتباعه ، فزعمت أنهم الضعفاء والاحداث والمساكين والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان ، وسألتك ممن يتبعه أيصبر ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت انه لا يتبعه أحد فيفارقه ، فكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه ، وسألتك عن الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم ، وكذلك حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا ، فلئن كنت صدقتني عنه فليعلمن على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت اني عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك .

قال ابو سفيان : فقمت من عنده وانا اضرب باحدى يدي على الأخرى وأقول لقد أمر امر ابن ابي كبشة ، اصبحت ملوك بني الأصفر يهابونه في ملكهم وسلطانهم

- ٣ -

حدث ابو محمد بن السمار قال

كان ابي صديقا للحسين بن الضحاك وكان يعاشره ، فحملني معه يوما اليه وحمل ابي يحادثه الى ان قال له

يا ابا علي ، قد تأخرت ارزاقك وانقطعت موادك ونفقتك كثيرة ، كيف تمشي أمرك ؟

فقال له : بلى والله يا أخي ، ما قوام أمري الا ببقايا حباب الأمين محمد بن زبيدة وذخائره وهباب جارية له ـ لم يسمها ـ أعتقني للابد لشيء طرب جرى على عهد محمد ، وذلك أن الأمين دعاني يوما فقال لي :

يا حسين ، ان جليس الرجل عشيره وثقته وموضع سره وامنه ، وان جاريتي ظلامة أحسن الناس وجها وغناء ، وهي مني بمنزلة نفسي ، وقد كدرت على صنعوها وعمدت على السمة فيها بعجمها بنفسها وتحشها على وادلالها بما تعلم من حبي اياها ، وانى مجصرها ومحضر صاحبة لها ليمس منها في بي ، لتمشي معها فاذا مضت وأومأت لك اليها ـ على أن أمرها ابين من أن يخفى عليك ـ فلا تستحسن الماء ولا تشرب عليه

واذا غنت الأخرى فاشرب واطرب واستحسن واشقق ثيابك ، وعلى مكان كل ثوب مائة ثوب .

فقلت : السمع والطاعة .

فجلس في حجرة الجلوة واحضرني وسقاني وجلع علي ، وغنت المغنية وقد أخذ الشراب مني ، فما تمالكت أن استحسنت وطربت وشربت ، فأومأ الي وقطب في وجهي . ثم غنت الأخرى فجعلت أتكلف ما أقوله وأفعله . ثم غنت المغنية ثانيه فانت فما لم اسمع مثله قط حسنا ، فما ملكت نفسي أن صحت وشربت وطربت ، وهو ينظر الي ويغض نفسه عيظا ، وقد زال عقلي فما أفكر فيه ، حتى فعلت ذلك مرارا ، وكلما ازداد شربي ذهب عقلي وزدت مما يكره ، فغضب مني فأمسني وأمر بجر رجلي من بين يديه وصرفني ، فخرجت وصرفت ، فامر أن احجب .

وجاءني الناس يتوجعون لي ويسألون عن قصتي فأقول لهم .

حمل على البريد فاسات أدبي ، فقومني أمير المؤمنين بصرفي وعاقبني بمنعي من الوصول اليه .

مضى لما أنا فيه شهر ، ثم جاءني البشارة أنه قد رضي عني ، وأمر باحضاري، فحضرت وأنا خائف . فلما وصلت أعطاني الأمين يده فقبلتها ، وضحك الي وقام وقال انعمي .

دخل الى تلك الحجرة نعيمها ولم يحضر غيري ، وغنت المغنية التي غالبني من أجلها ما غالبني فسكت .

فقال لي : قل ما شئت ولا تخف . فشربت واستحسنت .

ثم قال لي : يا حسن ، لقد جار الله لك بخلافي وجرى القدر بما تحب فيه . ان هذه الجارية عادت الى الحال التي اريد منها ورضيت كل أفعالها ، فأذكرني بك وسألتني الرضا عنك والاختصاص لك . وقد فعلت ووصلتك بعشرة آلاف دينار ، ووصلتك هي بدون ذلك ، والله لو كنت فعلت ما قلت لك حتى تعود الى هذه الحال ثم تجعد ذلك عليك فتسألني الا تصل الى لأجبتها .

فدعوت له ، وشكرته ، وحمدت الله على توفيقه ، وزدت في الاستحسان والسرور الى أن سكرت ، وانصرفت ، وقد حمل معي المال .

وما كان يمضي أسبوع الا وصلاتها والطافها تصل الي من الجوهر والثياب والمال غير علم الأمين ، وما جالسته مجلسا بعد ذلك الا سألته ان يصلني . فكل شيء انفقه بعده الى هذه الغاية فمن فضل مالها وما ذخرت من صلاتها .

قال ابن البشار : فقال له أبي : ما سمعت بأحسن من هذا الحديث ، ولا أعجب مما وفقه الله لك فيه .